

العلوم الانسانية وَأَصْلُ المَفاهِمِ

(*)
د. خليل أحمد خليل

وما هي العلوم الانسانية⁽³⁾، الرخوة لولا هذا الفرع القوي فيها - نعي اللسانة (Linguistique)، تعلن حضورها في جامعات الوطن العربي، على أمل أن تتخطى مصاعبها، من خلال الباحثين والطلاب والاعلاميين، الى ثقافات الاجتماع العربي المعاصر. وما لا شك فيه ان هذا الحضور المتزايد لهذه العلوم، لا يمكنه ان يكسب معركته دون استرجاع العرب لمفهوم التقدم او النماء والنمو بكل معانيه، وفي كل مجالاته الاجتماعية والدولانية Etatique الشاملة، ودون تغلب العلوم الصحيحة والتطبيقية على المعوقات التي تعترض سبلها في مناحات قمعية، وفي مجاهبات يومية مع استبدادية التخلف⁽⁴⁾ وفكروياته الحاكمة في الدولة المستحكمة في السلوك والتفكير العربيين، واخيراً في هذه الفضاءات العربية الاسلامية المستنكفة عن الاحتكاك بقشرة هذا الواقع، وعن جلب الناس في بلادنا الى تاريخية ثقافتهم وحضارتهم ومعلوماتهم (Epistémologie). وبكلام آخر نقول ان علومنا الانسانية المجتلب أقلها

قد تكون الرغبة في فصل الانساني عن «الإلهي» وراء محاولات الانتقال من الإلهيات الى الانسانيات - او من علم آلهة Théologie الى علم الناس Anthropologie⁽¹⁾. وعلى كل حال، الانسان هو صاحب الرغبة والقائم بعملية النقلة أو الانتقال، وهو في مرحلة تولده بالغيبيات أو تألهه، كما في مرحلة اشتغائه الماديات أو تأنسنه، صاحب العلمين الإلهي والانساني، بعقله المحتال - المحاول دائماً وأبداً -، المستعطي والمستقوي بما يسحر ويمكر. فالعقل الذي جعل من ابداعاته البيانية وتجلياته المعرفية سحراً، هو عينه الذي يسعى في عصرنا ليجعل من العلوم وتقنياتها سحراً (معرفة مدهشة: الدهشة مفتاح السؤال والمعرفة)⁽²⁾ ما بعده سحر: يطمح الى جب ما قبله من مشاريع معرفية - ومنها المعرفة الدينية وحتى المعرفة السياسية - كانت وما زالت تسحر في عقاها أغلبية شعوب العالم، وتأسر ثقافتها وفكروياتها (ايديولوجياتها) في نطاقها، وتستحكم بمنطق الفعالية الانسانية، فتجعل منه قوة معنوية لا ترد.

(*) استاذ في معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية - بيروت.

والمعقول او اللامعقول في وحدة معرفية صغرى Epistémème -، الرأي، الفكرة، حتى المصطلح. فالفهوم هو المصطلح المرقى في لغتنا بكل مستوياتها الكلامية (كلام العامة، كلام العلماء، كلام الانبياء، الخ)، الى مستوى تعبيدي وقاموسي او مرجعي، يؤخذ بعد ويعتد في استعماله ضمن العدة المفهومية المتحصلة من قبل، او هو الماعون⁽⁸⁾ الفكري اي كل ما يستعان به في عملية التفكير والتذكر، انتاج الوعي (أخذه Prise de Conscience، الاعياء/الاستيعاء، ونشره: توعية ثقافية: acculturation).

والحال، إذا أجزنا لعقلنا العلمي الابتعاد مؤقتاً عن اشكال مصدرية المفهوم، وبالتالي عن مرجعية السلطوية (أهو وحي يومي كما في حال القرآن الكريم وكل الاسلاميات الصادرة عنه، أم هو وحي يوعى كما هو حاله في كل احوال الناس المفتكرين والمتعلمين والعلماء الانسانيين)، فاننا نستطيع ان نلاحظ تقاطع الوحي/الوعي وتشابكهما في لعبة التفكير او التعقل، حتى ليمكننا التساؤل عما اذا كانا لا يكونان ماعوناً واحداً لوظيفة عقلانية يكمن أداؤها في الانشطار الحقل (عقل الى أعلى ↑: وحي، عقل الى ادنى ↓: وحي). او عقل يأخذ من المستور، وعقل يأخذ من المنظور؟ الأمر الذي لا خلاف فيه، في هذا المستوى الدقيق من النظر الفلسفي العلمي، هو ان عقل الانسان هو الوعاء الواحد الذي يحتوي (كأنه حواء هذه الانسانية العظمى) ما يوحى اليه او ما يستوحى، وما يعيه او ما يستوعبه، في خلال معاناته الوجدية والوجودية. فهذا الذات، هذا العقل المفتكر Cogito هو عينه، أكان نبوياً (من صمت افتكر) ام كان انسانياً (النبي عندما لا يوحى اليه يفتكر في صمته، ويكون تفكره وعياً بعد وحي، والانسان اللانبي، او غير المتنبى يصمت لكي يستوحى ويستوعى، وينطق حين يوحى إليه/ويوعى). وفي

من الموروث العربي الاسلامي، والمفترض اكثرها من المنظوم العلمي العالمي، ما زالت تعيش خارج «مدينة العلم»⁽⁵⁾ Epistémopolis. والخلاف اليوم يدور حول باب هذه المدينة الموهومة: أهو الاناسي العربي أم هو الشيخ المسلم، ام كلاهما معاً، وكيف؟ وأية شراكة ممكنة في عصرنا بين العقل السحري (السحر كعلم، كبحث أيضاً في ما وراء المعيش والمفهوم والمعقول) والعقل العلمي الانساني؟ أهى شراكة توظيف عقلنا الواحد في حقلين متناسين - المعقول واللامعقول - ام هي شراكة هذين الحقلين في مشروع سياسي تجميعي توفيقي حتى التلفيق والتليس؟ وطالما ان الجامعات العربية هي، اليوم، هذه الحصون الرامزة الى «مدينة العلم» المنشودة، فان المجتمعات العربية والاسلامية لم تتراجع يوماً عن اعلانها، بلسان مشايخنا وعلمائنا الدينين، بان الجوامع والمساجد وحتى الحسينيات والخلايا والخلوات (خلوة Cloître) هي «مدن العلم» المتبغاة. واننا بصرف النظر عن الغوص في مستور هذه الازمة، سنحاول قراءة منظورها المعرفي، لعلنا نتمكن من التقرب، بخطوة علمية واثقة، من جوهر الاشكال المعرفي العربي المعاصر، وصوغه في رياضة علمية قابلة للعمر والعمران.

1- في انتاج المفهوم:

الرأي، الفكرة، المصطلح

في لساننا العلمي⁽⁶⁾، المفهوم هو صورة المعلوم، والمعلوم هو نتاج علمنا بالشيء أكان معقولاً أو لا معقولاً، شخصاً او لا شخصاً، موجوداً او متخيلاً، الخ. وهو من الفهم بكل دلالاته: الرؤية، المعاناة، التفسير، التحليل، التوليف او التركيب، التضاييف⁽⁷⁾ (Surcodage) - أي ربط معامل المعرفة بكل مستويات التحليل بحيث ينتظم العقل والعقل العاقل

لسان الإشارة*) نقول: ان عين العقل الساحرة بطبيعتها، الأسرة في نتاجها المعرفي وهي تعقد القرانات بين المعروف والمعلوم، بين المفهوم Pensé واللامفهوم impensé، انما تسعى الى نظم المؤلف وغير المؤلف في سرد (Système) قوامه الفرد (Sous-Système)، بحيث يكون الكلام المنطوق ذا نظام/أو منطق اي لا يظل «كلاماً بلا نظام» «Salade de mots». وعين العقل ما تراه، عبر الانسان بكل معاناته. وهذا الانسان الحي في سياق تاريخي، في عصر له روحه أو معناه، لا يمكنه مهما يكن مستواه المعرفي او العلمي ان يخفي معلوميته («ليكن في معلومك، من المعلوم حسب معلوماتك»، فيسعى معبراً ومؤولاً الى قول ذاته. الافصح عما عنده وفيه وحوله، مشدداً على «معناه الكلام» المرتبط بحقلين متماسكين جداً في معيشه، في تزمه الانساني: حقل الماعونية (كل ما يستعين به لاداء دوره) وحقل المعنانية أو المعلومية).

(واذا لم نلاحظ الماعونية الاجتماعية⁽⁹⁾ فاننا لن نكتنه المفاهيم التي ينتجها الناس، فنذهب مع أسلافنا الى القول، مثلهم، بماعونية إلهية تتعالى فوق كل التقنيات Techné وعلومها (الاتقانية التقانة: Technologie)، ونضرب عرض الحائط الغيبي بمعانة الناس وبمعانة معاناتهم الصادرة عنهم في كل منطوق او مكتوب او مصور او متلفز، الخ. وحين تباشر علومنا الانسانية برصد عادي او تكراري (Panel) للماعونية الاجتماعية وللمعنانية الانسانية معاً، تكون هذه العلوم قد بدأت باختراق «المنبذ السحري: Ghetto magique» الذي يحاول - كما حاول دائماً - ان يقدم نفسه مدينة للعلم في مجتمع أمي - لا علمي، وبإظهار النقيض البديل: الجامعة

العالمية Université savante في جماعات تأخذ العلم، بعد ان جربت السحر في خلال عمرها التاريخي السابق.

(إن الانسان يرى ولا يرى: يرى مثل الآخرين فيقدم آراء حول وقائع ومواضيع مشتركة، يبدو الخلاف فيها قابلاً للتسوية، ولا يرى مثل الآخرين، فيقدم خيلات حول اعتقادات وحقائق يبدو الاتفاق حولها صعب المأل. رؤية الانسان الواحد هو الذي يؤدي الوظيفتين معاً: وظيفة رؤية الشيء كما هو، ووظيفة رؤية شيء ما (لا شيء) كما يتخيله. وفي مستوى التفكير (réflexion) او التروي او التأمل، تتقاطع هاتان الوظيفتان، ويتلاقح عقل الفرد وتخيله (Imaginaire)، مثلما يتلاقح عقل الجماعة وتخيلها (وعياها/لا وعيها معاً). وبين الحقائق التاريخية (الوضعية/الموضوعية) التي ينتجها عقلا الفرد/الجماعة والحقائق الاعتقادية (التي تغدو سوسولوجية كلما انتشرت واستوعبت) التي ينتجها المخيال الفردي/الجماعي، تبدو بعض مفردات اللغة او اللسان (Langage/Langue)، قابلة لان تتميز من سواها، فيحولها الاستعمال العلمي/الفردي منه والجماعي/الى حدود او محددات، فتقلب الآراء المألوفة افكاراً مأثورة، وتقوم معاناة كل فرد/كل جماعة بإعطاء الروح (Esprit) أي المعنى Sens للأشياء، فيجري الكلام على روح العصر أي معناه - ومثاله. ان روح العصر المحمدي هو الاسلام، وحامله الفكري/الثقافي هو القرآن الكريم، الكتاب على إطلاقه. هنا العامل الجديد، بين المؤلف الشعبي والمأثور النخبوي في ذلك العصر (القرن السابع من التقويم المسيحي)، هو الكتاب المنزل. الوحي بما فيه عبارات وإشارات وإرشادات ومصطلحات. كيف

(*) مقابل لسان العبارة. يقول شاعر قبل الاسلام: (ومن فهم الإشارة فليصنها - وإلا سوف يقتل باللسان)

اصطلاحى افضل بالفرنسية ذاتها؟ في التاريخ الاجتماعي لقريش، حلف وعهد او ميثاق قوامه تنظيم رحلتي الصيف والشتاء التجاريتين، وفي القضاء الاعتقادي الاسلامي، تقويم لهذا الايلاف، دون دعوة الى إلغائه، تقويم عبادي يدعو القريشيين والناس كافة الى عبادة رب البيت، على قاعدتين: اطعامهم من جوع، وأمانهم من الخوف. والحال، فان المصطلح الذي قدمه بلاشير لا يتواءم، علمياً مع هذه الحالة الإسلامية، والعلوم الانسانية في عصرنا، وهي تبحث في روح الايلاف، تلفتت الى ما يلي:

أ - هناك مستوى للاجتماع البشري، تكون فيه الجماعة متحداً كامناً *Groupe latent*.

ب - وهناك مستوى للاجتماع البشري، تنتظم فيه الجماعة فتعبر عن آرائها وافكارها، وتتوافق على مصالح معينة، فتشكل جماعة صريحة او منتظمة. وقريش جماعة قبل الاسلام وبعده.

ج - الإسلام هو المتغير الذي يعطي للمتحد الاجتماعي هذا (*Communauté*) دلالة التآلفية أو الإيلافية على قاعدة عبادية (فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)⁽¹¹⁾.

يتعين على ما تقدم النظر، سوسيولوجيا، في مفهوم الايلاف بوصفه مرادفاً لمفهوم *Communalisation*، بحيث يبدو مدى تقصير مفهوم (*Communion*) الذي استعمله بلاشير، وابتعاده عن روح الإيلاف العربي والاسلامي معاً.

هذا مثال سريع عن تأصيل مفهوم اسلامي، بلغة بلاشير من جهة، وبلغة عالم انساني عربي اسلامي من جهة ثانية. الأمر يتوقف اذن على سؤال: من يوصل، كيف، لماذا؟ والحال، اذا كان الموصل سلفياً، فماذا يقول في هذا المنحى الذي قلناه؟ نتمنى ان يقوم علماء الدينون، فقهاؤنا ومشايخنا، كما قام أسلافنا

جرى إنتاج مفاهيم إسلامية بلسان عربي مبين؟ هذا المقال الفلسفي / العلمي لا يدعي إجابة وافية عن هذه المسألة (*Problématisation*)، لكنه يطمح الى تقريب المفهوم من أصله الاجتماعي التاريخي، بمعنى ان تأصيل المفاهيم يستدعي توجه العقل (الانا المفتكر *Cogito* بوظيفته: الفاكرة والذاكرة) الى العيني والعياني، الى الماعونية الاجتماعية ليقراً من خلالها القضاء الاعتقادي الذي صُعد المفهوم الى طبقاته. فالترتبات الاجتماعي (*Stratification Sociale*) أو الطباق، يضعنا في مواجهة عينة لاصول المفاهيم والمصطلحات المروجة او المعتمدة. لكن الماعونية الإلآمية (عالم الغيب) له طباقه هو الآخر (أنبياء، أولياء، ملائكة، وعلى الأرض علماء دين) (فقهاء، أمراء، مذاهب). وهنا يحار الباحث الانساني: أيسترجع المفهوم المدروس من أصله الاجتماعي ام من تخيلته، ام من الاثنين معاً؟ قد لا نجانب الحقيقة حين نقول ان القرار في هذا الشأن هو اعتقادي/سياسي، وبالتالي اجتماعي، يتوقف على مصلحة الباحث وعلى موقعه ودوره في الترتب الاجتماعي. فيغدو السؤال: من يوصل المفهوم؟ لمصلحة من؟ لأية غاية؟ فضلاً عن السؤال المركزي السابق: كيف يوصل المفهوم؟ وأي مفهوم يوصل؟ وأي مفهوم يُغيب؟.

يمكننا ان نأخذ مثلاً من القرآن الكريم: سورة إيلاف قريش. في العربية قبل الاسلام، الإيلاف هو الإلاف او العهد. وفي الآيات، يتعين الإيلاف في صورة اجتماعية اقتصادية ذات مضمون عبادي صريح. فما الذي حدا ببريجيس بلاشير⁽¹⁰⁾ R.Blachère في ترجمته الفرنسية للقرآن، لاعتماد *Communion* بمضمونه الكسبي الغربي مقابلاً للإيلاف القريشي، بصورته العربية الاسلامية؟ وهل تستطيع العلوم الانسانية تقديم بديل

بتقديم إجاباتهم، واعتماد الحوار، بدلاً من كاتم الصوت باسم الشريعة او باسم الثورة.

نحن نعتقد ان الشراكة كانت قائمة بين العقل الديني والعقل العلمي، او العقل بوظيفتيه الاعتقادية والتجريبية، وان هذه الشراكة ما زالت ممكنة وضرورية، شرط ان يكون التنوع ضمن وحدة الثقافة العربية وفي فضاء الحضارة الاسلامية التي ننتمي اليها بلا مواربة. وقد قرأنا لعلامتنا الكبير السيد محمد حسين فضل الله⁽¹²⁾ كلاماً مهيباً ومفيداً على «تأصيل المفاهيم» الاسلامية. وكلامه دعوة صحيحة، لكنها تستدعي التوقف عند سؤال: ما التأصيل؟ أهو أصولها، من جانب واحد، هو جانب الفقهاء والمشايع الاجلاء، وابعاد العلماء الانسانيين/الاجتماعيين عن هذا الحقل التأصيلي؟ أم هو بحث مشترك يقوم به الفقهاء والاناسيون معاً في مناخ فكري حر، كذلك الذي ساد، نحو 150 سنة في العصر العباسي، وكان قوامه تجربة المستنصرية، أول أونيسكو، او جامعة ثقافية عربية اسلامية، في التاريخ الوسيط؟ ما شهدته الحالة اللبنانية تحتاج الى توضيح صريح: هل حرية الفكر متاحة للجميع؟ ام ان التأصيل لا يكون إلا من خلال استئصال معنوي وجسدي «لمن قضي ولمن ينتظر»؟ هذه مسألة بحاجة الى رؤية سياسية، الى قرار إسلامي «لا إكراه في الدين»، «لا اعبد ما عبدتم ولا تعبدون ما اعبد» «لكم دينكم ولي دين»، (القرآن الكريم).

II - الثقافة الاجتماعية / الشعبية - النخبوية / والعدة المفهومية

قلنا ان المجتمع ينتج مفاهيمه او مصطلحاته، لكنه ينتجها وهو يؤدي وظيفته الثقافية، العلمية/الاعلامية. فالثقافة قوة المجتمع في التعبير عن حيويته وتنوع طاقاته، وهو فوق ذلك معنى المعقولة الفردية/الجماعية، روح الجماعة، وظيفة

العقلانية بوجهيها التفكري والتذكيري. والعقلانية علمانية بطبيعتها، فهي علم العالم. عقل الى العالم (المعلوم - المجهول) وهي سبب رئيسي من اسباب تقدم الانساني في وجوده، كونه حاضراً في عالم عام وفي عالمه الخاص (حقله، مجاله الحيوي) وبطبيعتها للوهمانية اي توجيه العقل بعمله الى طوبى Utopie لا مكان، لا موضوع، توجيهاً يحل فيه الاعتقاد محل الافتقار، والتصديق محل التحقيق والتجرب العياني. أما ثقافة المجتمع فتأخذ من كل الناس، من اعتقادهم وانتقاداتهم، من جهلهم وعلمهم، من تصديقهم وتحقيقهم، فتبدو ثقافة عامة لها مكوناتها ومتفرعاتها في وجه، وثقافة خاصة، لها علومها الاخص في وجه آخر. وعليه من المفاهيم ما هو اعتقادي، موهوم، وشائع (ابتسارات: Préjugés)، ومنها ما هو انتقادي، مثبت، مصطفي ومقعد (Concept). وتظهر الشواهد التاريخية لثقافات الشعوب المتكاثرة، ان المفاهيم نتاج معرفي، منه العلومي ومنه العلمي المحض. فما هي العدة المفهومية (Outillage Conceptuel) التي يتعين اعتمادها في علومنا الانسانية العربية والاسلامية؟ هنا اتجاهات:

1- اتجاه تعريبي، إستعراي، قوامه الافتراض المفهومي او المصطلحي من الغير، غرباً كان أو شرقاً، وأداته الثقافية هي الترجمة الى العربية من أمات الكتب والمعاجم والقواميس الأعجمية.

2- اتجاه عربي - إسلامي، منفتح على العلوم العربية الاسلامية، بقدر ما هو مرتبط بالفضاء العالمي للعلوم الانسانية. ونحن بدورنا في هذا الاتجاه والموقع، راجع عملنا: مفاتيح العلوم الانسانية الذي سيظهر قريباً.

3- اتجاه إسلامي محض، يعتبر ان المأثور الاسلامي أصولاً مفهومية كافية وافية لإحياء علوم

الاسلام وتجديد الفكرية الاسلامية، لبناء جمهورية او جمهوريات الاسلام، مما يعني القطع المعرفي مع الاتجاهين السابقين.

إلا أن هذه الاتجاهات متجاوزة ومتعاصرة في عالمنا العربي الراهن، تتصارع أكثر مما تتعاون. والمسألة الخطيرة علمياً هي التالية: ما السياسة الثقافية، ما التدبير المعرفي العقلاني المناسب لوضع حد لهذه الفوضى المفهومية التي تسود الاجتماع العربي العلمي؟ من المعلوم ان الثقافة والعلوم الانسانية ترتبط بالفكرويات السائدة والمعارضة، وان انتاج المعرفي الجماعي لا ينفصل عن القرار السياسي للجماعة، للجماعة، للدولة او السلطة المرجعية. والصراع يدور في هذا العالم العربي والاسلامي المعاصر حول السلطة المرجعية للمعرفة والعلوم، لا حول المفاهيم ذاتها حصراً. واذا كانت المفاهيم المنتجة لا تنفصل عن أصولها المرجعية إطلاقاً - ولو تخيل المتخيلون - فان الاختلاف في السلطة المرجعية يعكس نفسه تصارعاً في مستوى البحث الراهن عن مفهومية عربية اسلامية تخرجنا جميعنا، من دائرة الفوضى. وبعد:

فإن الثقافة العربية - الاسلامية تفرض نفسها في أفق التحول السياسي القائم داخل الاجتماع العربي وفي فضائه الاعتقادي/الفكري، وعلى نخومه - الثورة الاسلامية في ايران -. وان تأصيل المفاهيم المنشود بعد غياب او اغتراب، يستدعي أولاً توحيد عين العقل، ارتقاء الى عين الأصل المشترك في مشارعنا او مشاريعنا المعرفية العلمية والسياسية على حد سواء.

وما يلحظ في هذا السياق التاريخي الدقيق هو انشطارنا المعرفي بين ثقافتين: ثقافة الجمهور الاجتماعي وهو اكثرية الجماعة، وثقافة النخبة العربية والاسلامية المتخصصة خارج «الجامع الاسلامي» او الجماعة الاسلامية ومرجعياتها الدينية. كما يلحظ ايضاً استقواء الاتجاه الاسلامي بهذه الثقافة الجمهورية

وارجاعها الى الاصول المفهومية الاسلامية (الامبريالية: طاغوت، استكبار، الخ)، (الجاهلية، الفكر، الشرك، الايمان، الخ)، بينما ينعزل المختصون في نطاقهم الاكاديمي وفي ثقافة خارجية لم تعد موضع ثقة، وفوق الشبهات والانتقادات، ويسعى آخرون، ونحن منهم الى ربط المأثور العلمي العالمي الثقافي الشعبي⁽¹³⁾ وبالتراث الحضاري العربي الاسلامي. وانا لنعتقد بان التوتر الحالي بين ما يسمى «الحالة الاستشراقية» و «الحالة الاسلامية» سיתיي ذات يوم لصالح «الحالة العربية - الاسلامية القوية». ومهما يكن الأمر، فان التضخم الراهن والمتنافر للعدة المفهومية في العلوم الانسانية، بحيث بات الأمر فوضى - لا شوري - بين علمائنا ومشايخنا - لا يمكن ان ينتهي قريباً، ولا ان يدوم الى الأبد، واذا دام فانه سيتحول حرباً على العلم والمعرفة، ولن يعطي ثماراً أخرى سوى العودة الى الجهل والامية. فالأمر يتوقف، بصراحة، على حدود الصراع السياسي الراهن في مراكز الاستقطاب الرئيسة للمعارف والثقافات والفكرويات: نغني طهران، بغداد، دمشق، القدس، القاهرة، بيروت، تونس، الجزائر، الرباط، الخ. فهذه المراكز تقدم نفسها، بشكل او بآخر كمرجعيات للمعرفة السياسية، ولا يمكن للمفاهيم، حتى وان كانت تقنية، وحتى رياضية او تجريدية، ان تنتج في بلادنا بمعزل عن هذا التصارع الكبير. واللعبة كلها تدور حالياً داخل الثقافة الاجتماعية، بحيث نشهد، بكل وضوح، هذا التفاعل المرير بين ثقافتنا الشعبية والنخبوية، وبحيث نحار في اعتماد عدة مفهومية ثابتة اذ نلحظ مدى اعتداد كل فريق، وحتى كل استاذ وكل باحث وكل مترجم، بعدته المفهومية الخاصة به، وكأنه ثقافة داخل الثقافة، وليس فرعاً من أصل. اننا باختصار نؤصل بعض المفاهيم، بمعزل عن أية أصول مرجعية

مثلاً تختلف وتتميز من بعضها بخصوصيات مفهومية ومنتجات تقنية فاردة. ولذلك يبدو مفيداً وملحاً الوقوف على حدود هذه المسألة: ما جدوى علوم انسانية ذات مرجعية دخيلة، تعجز عن اداء دورها العياني او الميداني في المجتمع الذي تخاطبه ووتتحرره؟ وما جدوى علوم انسانية ذات مرجعية أصيلة (محلية) تقصّر في فهم الواقع الذي انتجها او تعجز عن تحليله وتوليده لرصد مجاري تطوره والعقبات المعرفية المعيقة لتقدمه وبالأخص لتحوّله الاجتماعي؟

لقد كانت الفلسفة في عالمنا العربي أم العلوم او علم العلوم (Epistémologie)، ثم جرى اغتيالها على مراحل، سواء باضطهاد الفلاسفة او المتفلسفين (الفلاذقة: Philodote)، او باضطهاد الفلسفة وتحريمها (فتوى ابن الصلاح الشهرزوري). وكان ذلك يجري لصالح السياسة الخليفية الاستبدادية، المستقوية على حرية الفكر، والعقل والمنطق (من تمنطق تزندق، أي صار زنديقاً، يقرأ كتاب الزند افستا، المفقود بدوره، والذي صار تهمة بين جملة الاتهامات التي انتجتها ظلامية الساسة)، وعلى حرية البحث اي العلم. وفي الوقت ذاته، كان الفقه والشرعية يوظفان مكان الفلسفة وعلومها، وباختصار مكان العلوم، مما حدا بأحدهم⁽¹⁴⁾ للإعلان: «لقد حوّلوا الفقه سحراً، وقلبوا العلوم، خرافة، والفلسفة مهاترة». وبوضوح تام، نعلن ان اغتيال الفلاسفة ومحاربتهم في عصرنا، كما في كل عصر، هو قرار سياسي يندرج في سياق «اغتيال العقل العربي». واغتيال الرّواد الساعين الى تقديم عقلي (عقلانية ومعقولة) للمجتمع وللسياسة، من خلال قراءة نقدية لهما، تنتج معرفة يمكن توظيفها في بناء مجتمع جديد، مختلف ومخالف للاجتماع القديم.

وعليه، فان الاختلاف في مرجعيات علومنا الانسانية، مصدره الأول سياسي، ومصدره الثاني هو

ثابتة، دقيقة وموثوقة، وربما يصح وصف هذه المرحلة من مراحل التأصيل المفهومي لعلومنا الانسانية، بأنها انتقالية، تجريبية وابداعية معاً. لكنها مرحلة غنية، فيها شيء من الحرية المكبوتة، ومن القهر الثقافي - الاجتماعي - السياسي، مرحلة تحتاج الى رعاية وتنوير، والا فان الظلامية الجمهورية ستترك الجمهور - العاجز أصلاً عن التأمل في ثقافته الشعبية - يحتاج بعدته المفهومية القاهرة كل هذه الجهود المبذولة في سبيل اقتران علمي صحيح بين ثقافتنا النخبوية وثقافات الجماعات المتنافرة حتى التناحر.

III - العلوم الانسانية العربية: مرجعيتها علمية، سحرية، دينية؟

ما مرجعية العلوم الانسانية العربية في عصرنا؟

السائد، بلا مواربة، مرجعيتان: إحداها تدرج خارج المدار الحضاري العربي - الاسلامي، وتعتبر هامشية اي لا منتسبة الى الجماعات التي تخاطبها او تبادله الخطاب، فهي، بكيفية عامة، مرجعية اجنبية، استشرافية - استعرابية، قوامها في الحقيقة جملة مرجعيات فرعية (اليونانية اللاتينية، الفرنسية، الانكليزية، الاميركية، الالمانية، الروسية الخ). وثانيتهما تدرج في مدار المألوف الشعبي والموروث المعرفي المأثور (الكلاسيكي)، وتتخذ من الخطاب العقلي عند العرب والمسلمين إطاراً مرجعياً لمعارفها وأدواتها المفهومية وتقنياتها المحيثة، وهي في واقعها تقوم على جملة مرجعيات فرعية (العبرية، الفارسية، العبرانية اليونانية، الخ). وبوجه عام يجري الكلام على تصنيف ثنائي لمرجعية علومنا الانسانية العربية: مرجعية خارجية ومرجعية داخلية. لكن المرجعيات كالثقافات والديانات والفكرات، وكالشعوب الحاملة والمنتجة لهذه جميعاً، تتفاعل وتتبادل المعلومات والتقنيات، تتصارع وتتواضع على مفاهيم مشتركة.

الواجهة تحديث المعارف والثقافات والعلوم، وكشف لنا بكل بساطة اننا منذ بضعة قرون نعيش بلا علوم انسانية وبلا تقنيات بحثية، فكان التوجه غرباً، شطر أوروبا لأخذ العلوم عنها ومنها العلوم الاجتماعية والانسانية. وحين عدنا من رحلة «الاغتراب العلمي» أو بحثاً عن العلم، بعدما تحولت «مدن العلم» في بلادنا الى «كتاتيب» عذتها الأجرومية والقراءة غير السليمة للقرآن الكريم، ناهيكم عن فهمه وتفسيره - كما عانينا ذلك في تجربتنا الخاصة - وجدنا أنفسنا في حالة انشطار مرجعي، وحتى على مستوى ما نسميه: «عين العقل». فأية مرجعية نتمتع؟ أهذه التي أخذناها عن أوروبا والغرب عامة؟ أم تلك التي توارثناها آثاراً لا بد من التنقيب عنها في أمات الكتب والمصادر والمراجع؟ وبعد، فأبى عين ننظر، نعمل النظر observation في الوقائع التي تجابهنا؟ أبعين العقل الغربي أم بعين العقل الاسلامي العربي الذي لم يكونا إلا في مراحل طفولتنا الفكرية والفكرية؟ واكتشفنا ان الرحلة العلمية لم تنته ولا يمكنها ان تنتهي مع عودتنا من الغرب الى أوطاننا وثقافتنا وحضاراتنا، وبالأخص الى لغتنا العربية ومصطلحاتها. وفي الواقع، ظل الحال راكداً هامداً، فمن جهة تحول فريق من علمائنا الاجتماعيين الى معربين او مستعربين، ينقلون الى العرب ما يقوله الغرب بلا تمحيص، وتحول فريق آخر - ونحن منه - الى التعريب والبحث في وقت واحد، وظل الجدار قائماً بيننا وبين فريق وريث لعداء السلطة - لا الدين يوهمون او يتوهمون - للعقل والعلم وفلسفات العلم. ويقدر ما كانت الدول في مجتمعاتنا العربية الاسلامية تسعى وراء حداثة ما، من خلال استيراد التقنيات - دون الوقوف على المعرفة التقنية بوصفها قوة عقلانية تضارع في فعلها، المعرفة السياسية كان الباب ينفتح في الجامعات أمام العلوم الانسانية ولكنه ظل موصداً

انتفاء المختلفين انفسهم، من باحثين وفقهاء وسياسيين. والحقيقة التي يتعين توضيحها هو ان ما ذهب اليه ابن خلدون في «مقدمته» وفي سيرته ورحلته غرباً وشرقاً، من ان السلطان قوامه رئاستان: الرئاسة العلمية والرئاسة السياسية، لا يلبث ان ينفيه حين يلحظ: ان السلطان الذي لا يجتمع لاثنين عند العرب في وقت واحد - كما لم يجتمع سيفان في غمد واحد قبل الاسلام وفي خلاله -، انما يقوم على العصبية - عصبية السيف والدم وعصبية المال -، ويمكنه عند الحاجة توظيف الرئاسات العلمية، ومنها الفلسفة والفقه والطب، وفقاً لميزان القوى الفكرية المتصارعة حول السلطة وفي السلطة. ويمتضي المصالح السلطانية للقوى المستحكمة بالجماعات، جرى تحريم الفلسفة أي تحريم العقل العلمي والعمل كمرجعية للعلوم الانسانية العربية، واستيعض عنه بالمرجعية السحرية تارة والدينية تارة، مما جعل أدبيات العلوم الانسانية تندحر في سياق التراجع العام للعلوم الوضعية والرياضية والطبية، وتستبدل بالاشعار والروايات الشعبية الأسطورية، ذات المضامين الاعتقادية السحرية الهادفة الى إلهاء عامة الناس عما يحيط بها من مخاطر وتحديات (لاحظوا كيف أفاد المدعو ابو حامد الغزالي من تراجع الفلسفة والعلوم في عصره - بوصفها ضلالاً - وكيف حل على الفلسفة والفلاسفة، ولم يلتفت الى الحملة الصليبية التي اجتاحت الساحل العربي حتى القدس، فكان شاغله الأوحده جلب الناس الى السلطان من خلال لعبة «المتخذ من الضلال» و«احياء علوم الدين»). الامر الذي أوهم لفترة ان مثل هذه «العلوم» السحرية والصوفية يمكنها ان تأخذ مكان العلوم الانسانية العربية والاسلامية، المندحرة مع اندحار الفلسفة والعلوم الصحيحة. غير ان العصر الحديث، وبالأخص القرن العشرين، اعاد الى

للطبقات ايدولوجياتها الخاصة بها تماماً، ولرجال الدين مذهبهم وأحزابهم. العلوم الانسانية لم ترق الى مرتبة علوم إلا بفضل تلك العلمانية (علم الدنيا) التي اسهم العرب واليونان في تكوينها العقلي حتى القرن العاشر، ثم واصل تكوينها وتأطيرها العالم الجديد، الى ان عادت الينا في هذا القرن من خلال علمائنا الانسانيين. فهل نترك العالم يتقدم، ونحافظ على تأخرنا في مجال هذه العلوم الانسانية التي نحن في أشد الحاجة اليها لتسهم في معركة تحولاتنا الاجتماعية، لا لنربح شيئاً آخر سوى وهم المحافظة على «أصول» يبدو من الصعب تغذيتها إلا بهذا الاستئصال المعنوي والجسدي للعلوم الانسانية ولعلمائها. وقد دفعنا في لبنان الثمن غالياً من عقول مفكرينا وعلمائنا الذين اغتيلوا مادياً وفكرياً، عبر حرب أهلية ظالمة.

IV- تأصيل المفاهيم في الفضاء العربي- الاسلامي

أمام هذا الشطط الذي بلغته «حالة أصولية» متطرفة، يمكننا الدعوة الى تأصيل المفاهيم في علومنا الانسانية العربية، دون اللجوء الى عملية الاستئصال، ذات المصدر السلطوي كما ذكرنا، وذات الهدف الاستعماري - اذ ان تخريب البناء العلمي للأمة العربية، ومحاربة أدمغتها العلمية، إما بسجنها في السجن او في الوظيفة لا فرق، وإما باغتيالها صراحة، وإما بتهجيرها وردها الى حيث أتت، (لا الى أصل تاريخي)، لا يتخدم في النهاية سوى مشروع او مشاريع الاستعمار العالمي القائم على «مزيد من التقدم والتفوق والاستقواء بالعقل ومبتكراته» من جهة» وعلى «مزيد من التخلف والتقوقع والاستقواء بالسحر ومبتكراته» من جهة ثانية.

يقابل هذا الشطط الأصولي، شطط تغريبي - استراقي، دعواه: «إما الغرب وإما لا شيء»

في وجهها على الصعيد الاجتماعي حيث يسود الفقه والسحر وشتى الاعتقادات. وها نحن نواجه اليوم أمرين متكاملين: أولهما انقلاب فريق من علمائنا الاجتماعيين على العلوم الانسانية بمفاهيمها وتقنياتها، وثانيهما انقضاؤ المجتمع، من خلال هؤلاء الأساتذة وفريق من الطلاب، على العلوم الاجتماعية ومباحثها الدقيقة وتقنياتها المتخصصة وبالتحديد على عتادها المفهومي، مما يجعلها تندرج في سياق الصراع الاهلي على السلطة.

إذن، المرجعية المعرفية للعلوم الانسانية لا تنفصل، بحال، عن المرجعية السياسية للدولة والمجتمع. فاذا كانت مرجعية الدولة علمية وتسعى الى تجديد البناء الاجتماعي على أسس علمية وتقنية حديثة، فان العلوم الانسانية يمكنها الافادة كلياً من ذلك، ولكن اذا ظلت مرجعية الدولة دينية وسحرية، كما هو حال معظم الانظمة العربية والاسلامية، وسلاحها العسكر وحدهم، لا العلماء فان من غير المستغرب ان يسمى الفقه فلسفة، وان تلغى الفلسفة، وان تتحول العلوم الانسانية بكل تراثها العالمي الى مجرد «حالة أدبية» في بلادنا، تنضاف الى «الشعر كديوان للعرب» والى «السحر كبيان ما بعده بيان». هذه، باختصار صورة عن مأساة «البؤس العلمي» التي يعانيها العلماء والمفكرون العرب، في وضع يسوده التلفيق، وقلب المعرفة تكديساً وتجميعاً لمتفرقات فكرية، ليته تنتمي الى «شذرات الذهب»، كما يسوده زج هذه العلوم الانسانية الرخوة أصلاً، والفتية عندنا، في أتون الاضطراع السياسي، القائم بدوره على عقلية رعوية، عقلية التباسية، كشكولية، فيها كل شيء، ولا شيء معاً.

نحن كنا وما زلنا مع مرجعية علمية دقيقة لعلومنا الانسانية، ومع استقلالية هذه العلوم عن الخلاف السياسي السلطاني، بوجهيه الطبقي والديني، وليكن

« Sociologie »، والمطلوب من علمائنا الانسانيين العرب الاستمرار على خطى الباحثين غير المتورطين في لعبة السياسة الدهاوية، فالمشكلة هي تأصيل المفاهيم من أصولها العربية والعالمية، بلا تضيق، واطلاق حرية العقل مطلقة» من كل عقل. هل هذا مطلب ممكن في عالم عربي تخنقه سياسة الأحزاب؟

ان ما انتجه العلماء الانسانيون العرب في لبنان وسوريا وفلسطين والعراق ومصر وتونس والجزائر والمغرب، يؤكد ان الاستئصال للعلماء وللعلوم الانسانية ومفاهيمها هو مشروع استبدادي وانتحاري لم يكتب له حظ من النجاح. فمفسرة التأصيل المفهومي للعلوم الانسانية منطلقة، رغم كل العقبات المعرفية والحواجز الاعتقادية والظلمات السياسية. مستقبل هذه العلوم يتوقف في بلادنا على مدى قدرة العلماء الاجتماعيين عن فك الارتباط بينهم وبين هذا «اللاهوت» الذي فقد عدته المفهومية، فلجأ الى اغتيال متجسي العدة المفهومية، سلاح الفكر العربي في معركته القائمة والمقبلة لأجل التحول الاجتماعي الجذري. واذا كانت الشراكة بين العقل العلمي والعقل السحري ما تزال قائمة حالياً في بلادنا، فانها في مطلع القرن الحادي والعشرين لن تكون ممكنة، ولا بد من طلاق او خلع او قطع معرفي بين هذين الشريكين العدوين. وبقدر ما يصمد العقل العلمي العربي، سيجد العقل السحري الآخر نفسه مضطراً إما لانتاج عدته المفهومية الخاصة به، وعندئذ لن يجد العلماء الاجتماعيون حرجاً في الاطلاع على هذه العدة والافادة منها، وإما للخروج نهائياً من دائرة الصراع بين «الديماغوجيا» و«السوسيولوجيا».

ويعضده في ذلك اتجاه غربي يقول: «دعوا الشرق يتأخر، وأفسدوه من داخله، واعطوه علماء جهلاء فكل شيء صالح لهذا الشرق القديم، المستنقع في اوهامه، المتعقد في معتقداته السحرية - الاسطورية». وهذا الشطط مرفوض من جانبنا، اذ انه لا يشكل سوى حصان طروادة لحرب الغرب على العرب والمسلمين. فلا استشراف ولا استعراب، بل سعي جدي لتأصيل المفاهيم في فضاء عربي - اسلامي يستمد قوته من استقلالية مرجعيته العلمية - المرتبطة باستقلالية سياسية للبلد - ومن ابداع علمائه وشجاعتهم المعنوية على تشذيب المفاهيم واستعلامها ونهلها من كل مناهلها الصحيحة، بحيث تستعاد خصوصيات المفاهيم العربية الاسلامية وتوظف في سياق الابحاث العلمية الاجتماعية الهادفة الى معرفة الواقع المعيش، بعيداً عن لعبة الاعتراف او التجاهل التي يمارسها الغربيون والاستشراقيون والمستعمرون.

ان الفضاء العربي - الاسلامي مليء، بل هو مثقل بالمصطلحات والمفاهيم والمعاني. واللغة العربية من أغنى لغات العالم، وتزيد مفرداتها حالياً عن الخمسة ملايين، وليس من البناء العلمي بشيء ان تسقط المفاهيم اسقاطاً على مجتمعاتنا، وكذلك ليس من السلوك العلمي السوي تجاهل ورفض المفاهيم التي انتجها زملاؤنا العلماء الانسانيون في العالم، بحجة ان لدينا ما يكفي. هذا الموقف يستلزم كثيراً من تواضع العلماء، والابتعاد عن لا عقلانية السياسيين وادعاءاتهم الفكرية الرامية إلى إرضاء الدماء ولو أدى ذلك الى احلال الدهاوية « Démagogie » محل العلوم الاجتماعية

الحواشي

- (1) Hassan Hanafi: Théologie et Anthropologie, in Renaissance du monde arabe, Colloque, Genève, 1975.
- (2) ارسطو: الدهشة بداية المعرفة
F. Chatelet: La Philosophie, Ed. Marabout, Paris 1984. راجع:
- (3) Dictionnaire critique de la sociologie, P.U.F. Paris 1983.
- (4) د. غالي شكري: ديكتاتورية التخلف، دار الطليعة، بيروت، 1986.
- (5) في حديث شائع في بعض الأوساط للرسول العربي (ص): «أنا مدينة العلم وعليّ بابها».
- (6) في معجمنا المخطوط «مفاتيح العلوم الانسانية» الذي نأمل صدوره عام 1988، عمل مفصل حول المفاهيم الاساسية في العلوم الانسانية وهي تناهز الـ 600 مفهوم اساسي، مع آلاف المفاهيم الفرعية الواردة في متون المفاهيم الاساسية او المنوالية.
- (7) الكلّيات، لابي البقاء، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1978 (5 أجزاء).
- (8) القرآن الكريم، مادة ماعون: «والذين يمينون الماعون»، لاحظ بالفرنسية:
- Us, Ustensil, Ustensilité, User, Usage, etc.
- Ustensilité sociale (9)
- Régis Blachère: Le Coran, Introduction au Coran. (10)
- Jean Gros-Jean: Le Coran, etc.
- (11) القرآن الكريم، سورة الايلاف.
- (12) الوحدة الاسلامية بين الواقع والمثال، محاضرة بتاريخ 84/11/4، راجع ص 21/19/17/16.
- (13) راجع عملنا: محوسبولوجيا للثقافة الشعبية، بيروت، دار الحداثة، 1979.
- (14) راجع: مجلة النهج، لصاحبها المرحوم السيد صدرالدين شرف الدين، صور ما بين 1954 و 1957، مقالة بعنوان «الفلسفة والسحر» حيث يشدد الكاتب على «انقلاب الفقه والفلسفة سحراً» وعلى كيفية تعلم المسلمين السحر بدلاً من العلم.